

تاريخ الاستلام: 2025/02/24 تاريخ القبول: 2025/05/26 تاريخ النشر: 2025/06/01



كرنفالية الأنساق السوسيوثقافية في رواية "الحي الخافي" لمحمد زفزاف

✍ ليلى بن عائشة²

leila.benaicha19@gmail.com

مخبر الترجمة والدراسات المقارنة في الفنون والأدب

المعهد العالي لمهن فنون العرض والسمعي

البصري/الجزائر

✍ أشرف حداد¹

a.haddad@univ-setif2.dz

مخبر السرديات والأنساق الثقافية.

جامعة محمد لمين دباغين، سطيف 2/ الجزائر

Carnavalesque Nature of Socio-Cultural in the Novel « The Rear Neighborhood » by Mohamed Zafzaf

✍ Achref Haddad

a.haddad@univ-setif2.dz

Mohamed Lamine Debaghine

University, Setif 2/ Algeria

✍ Leila Benaicha

leila.benaicha19@gmail.com

I.S.M.A.S, Bordj El Kiffan /

Algeria

¹ المؤلف المرسل: أشرف حداد

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الأنساق السوسيوثقافية المتوارية في رواية "الحيّ الخلفيّ"، إذ سعى الروائيّ في توسله بالثقافة الهامشيّة خلق عالم روائيّ يحتفي بالكائنات الاجتماعية المنسيّة والمطموسة من صفحات التاريخ عبر إعادة بعث أصوات القاع السفليّ المغيّبة؛ بغية إعلان ميلاد سرديّة "المهمش المختلف" المناوئ لسلطة المركزيات التقليديّة. فكرنفالية الأنساق التي تمدنا بها الذوات الخطابية داخل هذا المنتج الثقافيّ، تؤكد بحثها لتقويض مختلف النظم الاجتماعية المتحكمة بسيرورة الفعل الحياتي داخل جغرافيا الواقع القاسي، وتعربة ممارسات سلطة المراقبة والمعاقبة المقيّدة لحرية الحركة والقول، فالكتابة الزفزافية هي سرد مراوغ يتخذ من الثقافة المضادة أداة لنقد الخطابات المتحجرة واخلخل الأنساق الغامضة المحمولة في جوانية النصوص التخيلية السردية.

الكلمات المفتاحية: الثقافة الهامشية، المهمش المختلف، كرنفالية الأنساق، تقويض، سرد مراوغ.

ABSTRACT:

This study aims to shed light on the underlying socio-cultural structures in the novel "The rear neighborhood". By drawing on marginal culture, the author seeks to create a fictional world that celebrates socially excluded and historically erased entities, reviving the voices of the forgotten lower classes. The objective is to proclaim the emergence of a narrative of the different marginal, opposing the dominance of traditional centralities.

The carnivalesque nature of the structures presented by the discursive subjectivities in this cultural work reflects an attempt to subvert the various social systems governing life's course within a geographically harsh reality. It exposes the practices of censorship and repression that restrict freedom of expression and writing. The Zanzafiq is a cunning narrative that employs counter-hegemonic culture as a tool to critique rigid discourses and destabilize the opaque structures embedded in the depths of fictional narrative texts.

Keywords: marginal culture, different marginal, Carnavalesque structures, subversion, cunning narrative

1. مقدمة:

يحتوي أيّ فنّ إبداعيّ مهما كان صنوه، أو تبدلت أنواعه وتغيّرت أشكاله وتفاعلت فيما بينها، على عديد الأنساق السوسيوثقافية الظاهرة التي تكتنفها أنساق أخرى مختلة في اتخاذها من التخوم والشطآن الخطابية المحجوبة مسكناً ومأوى، وهو ما نلمسه جلياً في الكتابة الإبداعية الزفزافية (الرواية، القصة القصيرة، المسرح وحتى النصوص الشعرية)، إذ تتغنى نصوصه تلك بأنساقية متواشجة ومتداخلة، من منطلق إنّه "لا يمكن أن يوجد كاتب مهم لا تنطوي كتابته على فلسفة معينة، فلسفة هي نتاج تجربته وخبرته وثقافته ورؤيته وحساسيته ومزاجه ومعرفته وعلاقاته ونجاحاته وخيباته، فلسفة تزوج بين المعرفة النظرية بأفاقها الثقافية المتعددة والممارسة الإجرائية بحرفيتها ومتعتها ومغامرتها، فلسفة تقوم على التمثّل والفهم والتأمل والنظرة الحرة والحيوية والرحبة إلى الأشياء، فلسفة تولد في أحضان الهدوء والصخب في آن، على الماء واليابسة في وقت واحد، تنطلق من الذات نحو الموضوع وبالعكس، تقارب بين الأنا والآخر في تفاعل يقوم على القبول والتفاهم والحوار والمنطق والحجاج" (عبيد، 2016، صفحة 17)، فالكتابة الزفزافية تحتفي بفلسفة خاصة، اتخذت من عالم الهوامش المنسية والكائنات المقصية فلسفة في السرد ومقتنصا في الإبداع، إذ لم يكتف المبدع بإعادة الروح للشرائح الاجتماعية المطمورة في القاع السحيق من الدهاليز المظلمة، بل تعدّى ذلك إلى محاولة الولوج – بالطبع بإبداعاته المتميزة- إلى كسر النمطية الكلاسيكية في القول السردية، بتبنيه لكتابة المتخلف والمغاير؛ في استراقه الإنصات لأصواتهم ولغاتهم، التي تسكن الدرك القصي من الطبقات الاجتماعية الدنيا.

إنّ الكتابة الروائية الزفزافية تُعصّد داخلها رؤية فنية إبداعية، فهي "تكتنز بالكثير من بالصيغ السردية، وتحتضن الفكر، كما تجتهد في الانفتاح على الإمكانيات الثقافية التي تغذي التخيل وتقود زناده. تلزم القارئ بالتريث في إيقاع المصاحبة النقدية. كما تدعو لاستنفار كل المداخل الممكنة لاقتفاء أثر الدلالات التي تتقصد إلى تشييدها" (الخضراوي، 2012، صفحة 64)، إذ تقوم عوالمها التخيلية على توظيف نصوص من حقول أخرى وسياقات "سوسيو تاريخية" (Socio-historical) و "سوسيوثقافية" (Socio-cultural)، مما يسهم في حملتها الثرية من التي تسمح باستبطان الكثير من الأنساق السوسيوثقافية المتواشجة وبعضها المؤطرة ضمن المحكي الروائي العام "للأحياء الخلفية"، "فالثقافة ليست دائماً منحاذاة للمركز. والأنساق الأصول في دلالتها على الهيمنة والتسلط والمركزية لا تعدو أن تحمل في ذاتها عناصر تفرز خطاب مقاومة موجه ضدها، يفضح زيفها ومحدودية أفقها" (الخضراوي، الأدب موضوعاً للدراسات الثقافية، 2007، صفحة 59)، فالمبدع المغربي في توّسله باللغة الروائية من الثقافة المضادة المركبة من زخرفية الفنون اللفظية وغير اللفظية، يستدعي ذلك القبس المعرفي المبعوث

في ثنايا المرويات الصغرى –بلغة "إدوارد سعيد" (Edward. W. Said)- لنمذجة كتابة قائمة على التمرد والرفض لكل التقاليد المكرسة في الأنساق الثابتة والجامدة في دساتير السرديات المعيارية والتقليدية.

ينصب طرحنا من خلال الإشكالية الرئيسة لهذه الدراسة، على محاولة التنقيب عن تلك الكرنفالية (Bakhtine, 1970) من الأنساق السوسيوثقافية المتضمنة في هذا المنجز السردية-الثقافي، والتي أراد الروائي من خلالها النبش في عوالم "غير المعلن عنه" عبر تمريره لعديد الرسائل المشفرة في الخطابات المموهة من المحكيات الصغرى المؤطرة للمحكي العام من فضاء "الجحور المظلمة" أو "المستنقعات الآسنة"، لذلك نلعب التساؤل بالقول: أين تكمن تلك الأنساق السوسيوثقافية في النسيج الروائي لهذا المنجز الأدبي؟ ومن ثم هل هذه الأنساق واحدة أم جاءت على صيغ متباينة؟، لذلك وباستثمارنا العدة الإجرائية التي تمدنا بها المقاربة السوسيوثقافية (عماد، 2016) سنتوجه صوب الحفر في داخل هذا النص بغية الوقوع على تلك "الأنماط الرمزية" (Code Systems) ومساءلة الدلالات الملمحة التي تطفو بها عالم الكون الروائي الزفزافي.

2. الأنساق السوسيوثقافية في مضمرات عتبة العنوان:

تحبل العنوان في قيمتها الدلالية كعلامة ثقافية داخل المنتجات الأدبية من حدود كلية النصوص الزفزافية، على لمسة "أليغورية" (Allegory) من خلال التداخل "عبر ثقافي" بين مختلف الأنساق السوسيوثقافية غير المعلنة خلف تركيب جملتها الثقافية "الحي الخلفي"، فمركبها التلفظي يتكوّن داخل الرواية من جموع الشخصيات الروائية المشكّلة من تلك الفواعل الاجتماعية –بلغة "بيير بورديو" (Pierre Bourdieu)- التي تنسج عبر "الحوارية" (Dialogisme) بينها ومحكياتها المتخيّلة صورًا مصغرة عن الواقع المأساوي لبعض الشرائح المجتمعية من البيئة المحلية المنسية خلف "بيوت الصفيح" من جغرافيا "الضواحي المقصية".

يحمل التركيب التلفظي للجملة الثقافية "الحي الخلفي" مجموعة من "الإشارات النسقية" -بتعبير الناقد الثقافي ستيفن غرينبلات (Stephen Greenblatt)- فالأنساق المختلطة تتخفى عبر وضوح العبارة السردية المشكّلة من عنصري الإضافة بشقيها، إلا إنّ المضمرات النسقية تكتنفها الكثير الصور الفنية داخل المتن الروائي عبر تلك الهويات الزائفة –بتعبير "غليفورد غريتز" (Clifford Geertz)، إضافة إلى الكرنفالية المنفلتة من حالات الشعور بالاستبعاد والاستبعاد، لذلك فإنّ هذه الشيفرة السوسيوثقافية تتحوّل إلى لغة مكاشفة وفصح لممارسات سلطات الإسكات القهري والاستغلال المزدوج (المادي، المعنوي)، وفي هذا الصدد، تقول الذات الساردة: "كانت أزقة الحي مليئة بالحفر وغير مبلطة وكان القائد يسير ببطء كما لو كان يمشي على البيض، لم تكن هناك أصوات في هذا الفضاء المظلم وكانوا يسرون من زقاق لآخر.." (زفزاف، 2013، صفحة 10)، فالرموز الثقافية التي ترتبط فيما بينها لتنمذج صورة بصرية عن محكي البؤس الإنساني في "الجحور المظلمة" من الأحياز الهامشية البعيدة عن

"المركز" (Centre) السائد؛ وتؤكد بصيغته مغايرة عن توشحها بلبوس فلسفة الرفض التام للنمذجة الحياتية المعيارية التي سيّجتها "السلطة اللامرئية" وفق خطية من الرتبة القائلة، فهذا المقتطف السردى، يحمل في صميمه نبذة من الانتقاد اللاذع الباروديا السوداء لسلطة "الأعين المراقبة" التي تمثل تاريخ الهيمنة السلطوية (الخليل، 2016) للأنظمة "الثيوقراطية" (Theocracy) في تحالفها مع "المثقفين المرتزقة" (المراسل الصحفي المروّض) وأعوانها التنفيذيين من أصحاب المصالح الضيقة لمركزيات القمع والقهر (القائد الصامت، المُقدمين، المخازنية..)، لذلك تقوّض العنونة الزفزاوية كلّ الطروحات الافتراضية الجاهزة إلى انبعاثها كتشكيل ثقافيّ متميّز، يكتفّ بجملة من المدلولات الملتوية والرسائل الملعّزة، يريد من خلالها الروائيّ رسم ملامح جديدة "للرواية الثقافية" (Novels Narrative) التي تحتفي بالأصوات المقموعة من عوالم الثقافات المهمّشة داخل التواريخ الرسمية، ونمذجة لملامح "المسكوت عنهم" في الكتابة الروائية المعاصرة.

3. تمظهرات الأنساق السوسيوثقافية في نسيج الجسد الروائيّ "الحي الخلفى":

يضمّ هذا المنجز السردى في طياته الكثير من الأنساق السوسيوثقافية المزدوجة، فالثقافة المهمّشة تنفتح في معارضتها لقيم الثقافة المركزية على فلسفات المناوئة الحافلة بقيم المغايرة والاختلاف، ولهذا فإنّ هذه الرواية تكتنز في تركيبها الاجتماعية بفسيفساء من كائنات القاع السفليّ المنتمية إلى الطبقات الدنيا (Underclasses)، فيكون الصدام بين مختلف القضايا الاجتماعية وكذا المنغصات الحياتية التي تطوّح بأحلامها والتي تتحوّل مع مرور الزمن إلى أمراض مستعصية عن الشفاء في أجسادها التي تنهشها المصائب من كلّ جانب، تصوّر الذات الساردة هذا الغموض والانغلاق الذي يلف حياة "الجياد العرجاء" من الأحياء الخلفية، بقولها: "وكم سيفعلن بالتأكيد مع أولئك الأطفال الذين يلعبون الكرة هناك والذين سوف يشيخون قبل فوات الأوان إما في زنازة أو في زاوية أحد الشوارع منهكين متعبين مثل جياد عرجاء مشوّهة تُساق إلى المجزرة في صباح باكر أغبش" (زفزاف، الحي الخلفى، صفحة 17)، لذلك فإنّ المصير المشترك لهذه الجماعات المهمّشة يخلق مزيجاً مجتمعيّاً متفرداً يتسم لطقوسه وممارساته الاجتماعية المختلفة، ف"الدلالات الثقافية" (Cultural Semantics) المحمولة في مختلف الجمل الثقافية من المقطع الروائيّ تؤثر على تلك الأنساق المتوارية بين جنبات محكيّ "الأحياء الخلفية"، التي تقطع أوصالها السلطات القمعية وتسوقها إلى المجزرة كلّ لحظة، في سخرية مأكرة -بلغة "ميخائيل باختين" (Mikhail Bakhtine)- من النظم المستبدة المولدة لفلسفات التحريم، والمنع من الاقتراب عن كلّ موجبات المنع والحظر.

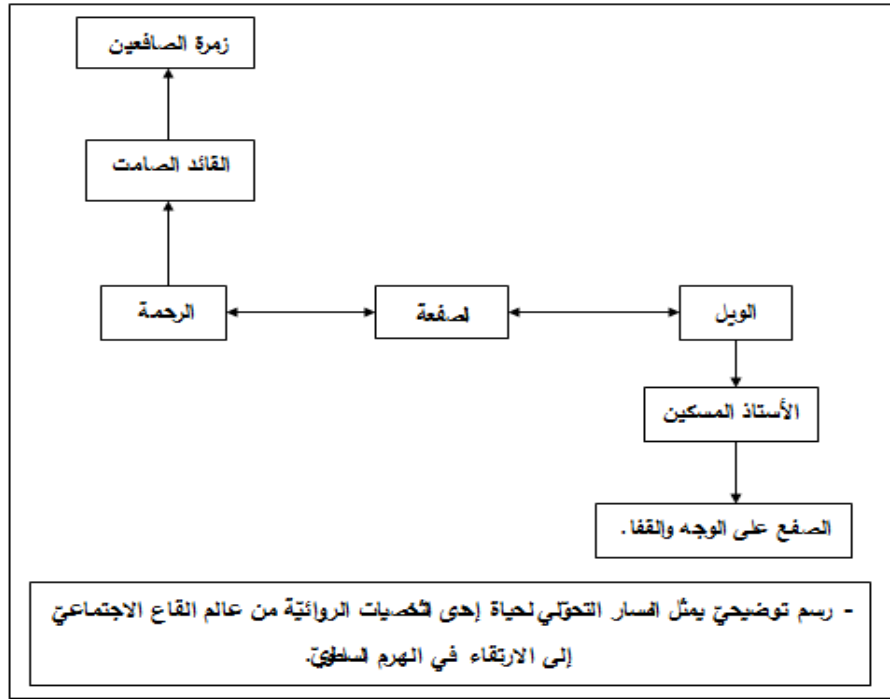
1.3 النسق السلطويّ-الرمزيّ:

تتعدد الأنساق السلطوية-الرمزية في هذا المتن الروائيّ، بانفتاحها على جملة من "التهريبات النسقية" -بلغة "عبد الله الغدامي"- المركبة من عديد اللوحات السردية التي تمدنا بها مختلف

السياقات الاجتماعية والثقافية المبنية في محكيّات النسيج الروائي العام، فالمضمّرات النسقية لا يمكن تقرأ بمعزل عن سياقاتها المنتجة لها، ذلك "إن النسق في ضوء انفتاحه على مكوّن الثقافة - يؤسس نظاماً من العلاقات المرجعية الخاصة، والاحتمالات الإشارية اللانهائية، حيث تضحي العلاقة بين الدال والمدلول اعتبارية لا حد لها" (عليّات، 2004، صفحة 42)، هذه العلاقات تنسج لها ألواناً متباينة من العلاقات الثقافية بين فواعلها الاجتماعية المهمّشة، القابعة في حدود إطار "الحيّ الخلفيّ" من السيرة الزمنية الراكدة، للمصير الوجوديّ المغرق في تراجيديا البؤس الإنسانيّ، فقد.. وكان الأفراد الذين يعيشون في أسفل الهرم هم الأكثر حرماناً، وهم الذين ظلّوا يعيشون في ((حالة من الخمول التام)) على حدّ تعبير شليز.. (إنغليز و هيوسون، 2013، صفحة 114)، فتمخّل "العوالم السفليّة" في حيواتها مع بعضها وممارساتها تجاه الآخرين، يتأطر ضمن أبعاد فضاءات هندسيّة معيّنة تتكوّن من "العمارات المغلقة والنوافذ أو التي لم يستكمل بناؤها والمنتشرة هنا وهناك لا بد أن يحتلها بعض السكان الغرباء إلى حين قرب الصيف، موعد عودة أصحابها الذين يشتغلون في أي شيء في أوروبا، وينامون في أي مكان ولو كان في حظيرة أو زريبة، ويقتاتون مما يمكنه أن يملأ البطن، وفي نهاية العمر يعودون إلى الوطن من أجل تحصيل ثمن الكراء بعد أن يكون الجسد قد أنهلك" (زفزاف، الحيّ الخلفيّ، الصفحات 05-06)، إذ تنبثق ثقافة المهمّشين من "هؤلاء" الذين "ينجبون والسلام" أو يلجئون إلى احتلال منازل المهاجرين إلى الضفة الأخرى من المتوسط، أو بناء أكواخ من الصفيح خلف المدينة في الأماكن الواطئة والمترية، فتسلسل مجموعة من المفارقات الساخرة التي تساوى بين "أولئك" الذين يشتغلون في أوروبا و"هؤلاء" الذين يعيشون حياة البؤس والحرمان، وقد يضطّروهم الأمر إلى احتلال منازل "أولئك"، فهؤلاء لا يختلفون في حيواتهم المعيشية المأساوية عن "أولئك" الذين يعانون بدراجات متفاوتة من الحرمان المقنن والاغتراب المؤلم في الآن ذاته، فأن تعيش الحرمان هنا أو هناك فسيّان، فمتلفظ "الاحتلال" ينهض كمعادل موضوعيّ يحمل الكثير من المؤشرات الثقافية؛ إنّه ردّ فعل مضاعف تجاه الأنظمة السلطويّة التي همّشت أدوار تلك الكائنات الاجتماعية بممارسات أجهزتها القهرية، فالنسقية السوسيوثقافية قائمة في هذا السياق، على نزع هالة الزيف التي تحيط بها ذاتها في عجزها عن توفير أبسط مقومات الحياة الكريمة، وفي المقابل، عمدت مدّ جذورها داخل الجسد الاجتماعيّ عبر الكائنات المهمّشة الأخرى التي تخدهما (الشيوخ، بعض الشخصيات البائسة)، وهو ما يفسّره جمال الدين الأفغاني، بقوله: "فالعبيد هم الذين يهربون من الحرية، فإذا طردهم سيّدهم بحثوا عن سيّد آخر!" (إسماعيلي، 2018، صفحة 07)؛ إنّها ثنائية (السيد/ العبد)، التي أوجدها العقل الغربيّ "الهيغليّ" (G. F. Hegel) وهو حال الجماعات المهمّشة على شتى مكوناتها، تنقاد دائماً إلى فلسفة تقوم على الانتقال من الأحياء الهامشيّة الواحدة تلو الأخرى، والأمر سيّان، فإنّها إذا لم تخضع "للقائد الصامت" من مقاطعته التي تضم أحياء هامشيّة أخرى، فإنّها تخضع إلى غيرهم من "السادة الكبار" الآخرين.

تُطبق السلطة الرمزية من عالم "الأحياء الفقيرة" ممثلة في "السلطة اللامرئية" على الفضاء الاجتماعيّ البائس، بتغلغلها داخل اللاشعور العام للشخص المأسود، مفاقمة من إحساسها بالاستلاب واليأس المضاعف الذي يظهر عبر تلك الممارسات من محيط "البلوطة العجوز"، التي تنتصب "وحيدة منفردة في الخلاء بعيداً عن بيوت الصفيح وعن باقي الأشجار الأخرى المتشعبة في الأرض كيفما اتفق (...)" وعند البلوطة الآن كانت هناك جماعات متفرقة من شيوخ وشبان. الشيوخ يلعبون الورق أو الضامة، بينما الشبان يقامرون من أجل سكرة هذا المساء، وكان الأطفال بعيداً عنهم يتصايحون وراء الكرة في ساحة صلبة.. " (زفزاف، الحيّ الخلفيّ، صفحة 15)، فهذه الشجرة هي صورة محرّفة عن الكائن المهمّش في سيرورته التي يتجاذبها قطباً: الحاضر المأساويّ، والماضي المأزوم؛ فانتصابها وشموخها أمام كلّ الأزمات التي مرّت على الحيّ مُدّ وجدّت دلالة على روح المقاومة التي لا زالت تتشبّث بها بعض الكائنات المقموعة؛ إنّها سجل مفتوح رغم انغلاق آفاق الحياة الاجتماعيّة في مهدها، لذلك فهي تحمل رمزيّة الممانعة المضادّة وتدّخر في مخزونها القيم الأصيلة التي عزلتها القوى المتجبرة في سجون الوحدة والعزلة، فالنسقيّة المضمرّة التي يريد الروائيّ إرساله عبر سرد راويه من هذا المقطع السرديّ، تريد لفت الانتباه إلى إنّ نسق الهيمنة المطلقة التي لا تتوانى المركزيات المتسلّطة في تثبيته داخل البيئة الاجتماعيّة، يقابل بردود أفعال تتبدى في أنساق المواجهة عبر التشبّث بالحياة رغم كلّ المصاعب والمطبات التي تعترض سبلها.

في نفس السياق، تتوسّل السلطات الاستبداديّة بمختلف الاستراتيجيات والأدوات في سبيل تنميط إمساكها بصيرورة تفاصيل الحياة اليوميّة "للحجور المظلمة"، إذ تظهر شخصيّة "القائد الصامت" كواحد من أهم أجهزة الدولة القمعيّة –بلغة "لويس ألتوسير" (Luis Althusser)- التي تقوم على تنفيذ الأوامر الذي تلقى "الصفعات" في صغره الواحدة تلو الأخرى، إلّا أنّه رغم كلّ ما كيل له أصبح شخصيّة سلطويّة، فمساره الحياتيّ قد خطت معالمه الكبرى تلك "الصفعة" التي تلقاها من "الشرطي" الذي يحمل وشما على أرنبة أنفه، وهذا ما نوضحه في الشكل الآتي:



فمن خلال المعطيات التي تمدنا بها المخطوطة أعلاه، نجد أنّ "الصفع" يختلف في صدهاء وشدته بين التأثير: الإيجابي/ السلبي، الرحمة/ الويل، بمعنى مدى فاعليته في تغيير حيوات بعض من الفواعل الاجتماعية داخل هرمية السلطة التقليدية (الاجتماعية والاقتصادية)، وهو ما خلق حالة من الخضوع التام لدى "المعلم الصامت"، الذي يلجّ على التقوقع على ذاته والركون إلى الصمت في أحيان كثيرة، يقول في أحد المقطعات السردية: "... كان عليّ ألا أتحدث بهذا الشكل. وما دامت الفرصة قد أُتيحت لي، فلم لا أتكلّم؟ إن وَقَعَ الصفعة ما يزال يُنبني إلى أشياء كثيرة قد أستطيع أن أتحدث عنها، لكن قد يُتاح لي أو لغيري الحديث عن في مثل تلك الأمور المستورة بثوب شفاف مثلاً. (...) هكذا نعيش جميعاً وراء ستار شفاف، الكل يعرف كيف نعيش جميعاً وراء هذا الستار، وعندما يحاول أي شخص أن يُزيل ذلك الستار فإنه يطرد فوراً من جماعة لعبة الستار تلك " (زفزاف، الحيّ الخلفيّ، صفحة 75)، فالثلاثية اللائبة (اللاأتحذث، اللاأتكلم، اللاأخرج) من أهم القواعد الناجزة التي تقعد لها جماعة لعبة الستار في قوانينها التي تجلب الطرد والنبذ إلى الهوامش المنسية، لكل من تسوّل له نفسه الخروج عن ذلك الستار؛ إنّه الوشاح الزائف الذي تَلَف به السلطويات الأحادية نفسها عبر بسطها نفوذها وسطوتها المطلقة، فالتركيب من الجملة "الأمور المستورة بثوب شفاف" يخفي في جوانبته ذلك التخبط الذي تتوجس منه السلطويات المستبدة، الذي بإمكانه أن يعكّر صفو سكونها وهدوئها، إذ بمجرد محاولة كشف سوءاتها وفضح لعبتها فإنّها تتسلّح بأهم إستراتيجياتها من الطرد إلى العزل المباشر درء لانفلات عقد ثقافتها المنغلقة الوثوقية.

2.3 النسق الإيديولوجي-السياسي:

يختفي النسق الإيديوسياسي في نسج هذا المتن الروائي، وراء الكثير من المدلولات الثقافية والخلفيات النسقية التي تقوم الثقافة بتسريبها إلينا عبر منظومة من "الحيل الثقافية" (Cultural Devices) التي بفحل الحفر فيها وضعضعة الدلالات الرمزية والإحالية التي تكتنفها، تتمكن من ملاسة تلك الأنساق المختلة التي تضمهرها، فالدوال المكوّنة من عديد العلامات المضمرّة ترمي بثقلها في جوانية الجمل الثقافية الحاملة لشتى الحيل التكتيكية تستدرج الظاهر في مكاشفتها للمسكوت عنه، في هذا الجانب بالتحديد، يطلق "القائد الصامت" عنان البوح في أمور محرّمة داخل منظومة الأعراف المؤدّجة، بقوله: "و يبدو أنني أتحدث في السياسة وهذا شيء ليس من حقي على الإطلاق، لكنني أتحدث من خلال قصة، وهذه بالنسبة لي فرصة مهمة لا يسمح لي بها في التلفزيون أو الإذاعة لأني قائد، وأحياناً أصبح قوَّاداً عندما تنعقد بعض المؤتمرات في بلادنا، لكن ذلك عمل والعمل ليس عيباً كيفما كان.." (زفزاف، الحي الخلفي، صفحة 74)، فالفعل السردّي من هذا المقتطف بالذات يبلغ ذوته في كسر الكثير من الخطوط الحمراء، خاصة لما يتعلق الأمر بأهم "الطابوهات المقدّسة"، فمن خلال مكاشفة هذه الشخصية الروائية تتضح الصورة الزائفة للإيديولوجيات السياسية التي تحتفي في معاجمها بمصطلحات محاطة بهالة كبيرة من البريق، فالممنوع يصبح مباحاً إذا ما تعلّق الأمر بتحقيق مصالح "الشخصيات المهمة" فالكلام مشروع بضوابط محددة يحرم اجتياز عتباتها، فثنائية: الحق/ الواجب، تستمد شرعيتها من إلغاء طرف لصالح الآخر، ولهذا فأن يصبح "القائد" قوَّاداً فهو في العرف السياسي أمر محبذ، إذا تمّ بناء على تلبية رغبة السلطة السياسية وصيانة خطاباتها المؤدّجة التي تطمح إلى التعمية والتنمية في الآن ذاته، إنّه "تغليف ومضاعفة للمعنى ستجعل من التضحية في وضع بيّني، بين الانتماء للنظام الرمزي (التضحية كفعل تذكية وقرب من الله)، والنظام السياسي، التضحية كشهادة، أي كصلاة ووهب للنفس إلى الله" (الزاهي، 2011، صفحة 129)، فثقافة "التضحية السياسية" أو بمسمى آخر "فداء النفس" "للسادة الكبار" من أجل تحقيق أقصى درجات الوفاء وأداء الواجبات المقدّسة تجاه حماة "المستنقعات الآسنة الكبيرة" المسماة "بالمغرب الجميل"، قائمة بالأساس على الطقس المضاعف المغلف بالتهويمات البائدة عن الإيديولوجيات الضيّقة، وفي هذا الصدد بالذات، يستوقفنا ذلك المشهد الحواريّ الذي بين دار بين "السائق" و"القائد الصامت": "ثم خرج السائق عن صمته عندما اقتربوا من النافذة المضاءة، ولأول مرة أو لآخر مرة يتشجع على قائده:

- اسمح لي يا سيدي، أعرف المهمة التي جئنا، عفواً جئتم من أجلها، لا أعتقد أن المعلم يفعل ذلك.

سكت القائد لحظة، وليس من عادته الصمت عند إبداء الملاحظات، لكنه قال وبكل وضوح:

- متفق معه. سوف نرى لكننا نقوم بالواجب، إنها الأوامر.
- أعرف سيدي، ذلك شغلّك، عفواً شغلنا جميعاً نحن نحافظ على أمن الدولة.

لقد علمتكم ذلك. إننا نحافظ على أمن الدولة، لكن أن لك أن تسكت.. لقد اقتربنا، ويمكنك أن تتوقف الآن وتنزل وتقول للمخازنية بأن ينزلوا وأن يطوقوا العمارة" (زفزاف، الحيّ الخلفيّ، الصفحات 83-84)، إذ تتحوّل كلّ تلك الشكوك إلى مسلمات تدعم منطق إيديولوجيات اللعبة السياسيّة عبر تلك "التهمة الجاهزة" التي تلفقها لكلّ من يعارضها، أو يخرج عن فلسفتها طروحاتها الدوغمائيّة (Dogmatism)، "فالمعلم المطرود" بالأساس تلاحقه في تلك الأحياز الهامشيّة تهمة من قبيل: إخفاء سلاح في بيت إحدى العاهرات، ومحاولة التآمر وتعكير صفو "أمن الدولة" لذلك "فالقائد الصامت" و"المخازنية" ما عليهم إلّا المحافظة على النظام وتنفيذ واجباتهم أو بالأحرى "الأوامر" الموكلة لهم وتطبيقها بحذافيرها، فالمضمرات النسقيّة التي يمدنا بها هذا المقطع السرديّ، تتواشج في ارتباطها "بقسمة القهر" (أوكان، 1994، صفحة 34) - حسب التعبير الفوكويّ (Michel Foucault) - في صيغته المعنويّة، للإشارة إلى ممارسات الأنظمة البوليسيّة التي تصدر حيوات الفواعل السوسيوثقافيّة "المعلم المطرود" تحت مسيات واهية وأسباب زائفة؛ من أجل منع قيام أيّ "حراك اجتماعيّ" (Social Dynamics) من شأنه تقويض رتابة الأفكار الأيديولوجيّة التي "تشبه النهر القدر، الموحد، الملوّث بالشوائب الذي تنزل فيه.." (غيرتز، 2009، الصفحات 405-406)، الذي يُحكمُ سيطرته على الواقع الاجتماعيّ المُساويّ وسيل جريانه داخل الجسد الاجتماعيّ العام عبر لغة العزل لكلّ الذوات المثقفة عن مجتمعاتها التي تتوخى القيام بأدوارها المنوطة في توعية الرأي العام وقيادة القاطرة المجتمعيّة نحو حياة أفضل، فالروائيّ يعلن رفضه المطلق لتلك النظرة الضيقة التي كبلت دور المثقفين من خلال نموذج "المعلم المطرود" الذي رمت به الكائنات المؤدلجة مع المُبعدين في العالم السفليّ والمهمّشين في الطبقات الدنيا، لاختيارهم الكلام وعدم السكوت عن مظاهر الفقر والحرمان في ظلّ غياب أدنى مقومات "العدالة الاجتماعيّة" (Social Justice).

4. خاتمة:

في ختام دراستها هذه التي حاولت التنقيب عن الأنساق السوسيوثقافيّة في عمل روائيّ مغربيّ "الحيّ الخلفيّ"، نكون قد توقفنا على عديد النتائج، هي على النحو الآتي:

- تتخذ الكتابة السردية الزفزافيّة من الثقافات المضادة منهلا خصبا لتجاوز نصوص الحقائق القارّة، وتجاوز المقولات السلطويّة الناجرة عبر كسرهما تكتيكات الكتابة السردية الكلاسيكيّة في اتخاذها من لغة الاختلاف فلسفة في الإبداع.
- يحتفي هذا النص السرديّ الزفزافيّ في جوانبته بفسيفساء مركبة من مختلف الأنساق السوسيوثقافيّة التي تمارس طقوسها بين الإعلان والإضمار؛ على نحو صعد من وتيرة الفعل السرديّ بشكل فعّال.

- يتسم هذا العمل الروائيّ بكرنفالية مميّزة من الأنساق المتداخلة وبعضها البعض، في مجاراتها مختلف السياقات (الاجتماعيّة، الثقافيّة، السياسيّة) التي ألقت بتأثيراتها على الساحة الأدبيّة والمجتمعيّة على حدّ سواء.
- تُعارض مختلف الأصوات السردية كذوات خطابيّة، مختلف النسيقات السوسيوثقافيّة الغامضة عبر البوح والمكاشفة في تعريضها لمنغصاتها وأحلامها التي تقذف بها داخل قوقعة الحيرة والغموض.
- يتوارى النسق السلطويّ-الرمزيّ عبر الكثير من المعطيات الثقافيّة التي تتوارى في هذا النص، إذ بمجرد مراودتها تنفتح على الذاكرة الموشومة بالآلام التي تحفر في أجساد كائناتها من فضاء "الجحور المظلمة".
- يدّخر النسق الإيديو-سياسيّ جملة من العلامات الثقافيّة والافتراضات الإحاليّة على الواقع الاجتماعيّ القاسي، الذي يحتكم في سيرورته الاجتماعيّة إلى ثلّة متنفذة ومهيمنة تتحكم في تسييس شؤون الرعية المهمشة بعيدا عن المشاركة في الحياة السياسيّة.
- إنّ الهجنة الأنساقية من هذا المنتج الإبداعيّ، تنأى عن المهادنة إلى تلك البحث غوصًا في تلك الخطابات الرافضة لثقافة الاصطفاء التي تقرّ بها الأنظمة الانغلاقيّة الصارمة.

المراجع:

- Bakhtine, M. (1970). L'oeuvre de Francois Rabalais et la culture populaire au Moyen Age. (A. Robel, Trad.) Paris: Edition Gallimard.
- إدريس الخضراوي. (2007). الأدب موضوعًا للدراسات الثقافية (الإصدار 1). الرباط: جذور للنشر.
- إدريس الخضراوي. (يونيو، 2012). الرواية المغربية المعاصرة، قراءة في التخيل والدلالة الثقافية. الثقافة المغربية، مجلة ثقافية تصدر عن وزارة الثقافة (36)، الصفحات 54-66.
- حمودة إسماعيلي. (2018). نساء رفضن عبودية الرجل. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.
- ديفيد إنغليز، و جون هيوسون. (2013). مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة (الإصدار 1). (لما نصير، المترجمون) الدوحة: المركز العربي للأبحاث وسياسة الدراسات.
- سمير الخليل. (2016). دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي (الإصدار 1). بيروت: دار الكتب العلمية.
- عبد الغني عماد. (2016). سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكاليات... من الحداثة إلى العولمة (الإصدار 3). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- عمر أوكان. (1994). مدخل لدراسة النص والسلطة (الإصدار 2). الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.
- فريد الزاهي. (2011). المقدس والمجتمع. الدار البيضاء.
- كليفورد غيرتز. (2009). تأويل الثقافات (الإصدار 1). (محمد بدوي، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- محمد زفزاف. (2013). الحيّ الخلفيّ (الإصدار 1). القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.

- محمد صابر عبيد. (2016). فلسفة السرد، مقارنة نقدية في ديناميات التعبير الروائي عند قاسم توفيق (الإصدار 1). عمّان: داء غيداء للنشر والتوزيع.
- يوسف عليمات. (2004). جماليات التحليل الثقافي، الشعر الجاهلي نموذجا (الإصدار 1). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.